ترزي الحرية!

بقلم: ثروت مكايد - مصر

لم يكن يخطر على بال إسماعيل الترزي أن يحدث له ما حدث.. ولا في الأحلام، بل لم يكن يخطر للأحلام نفسها أن تتشكل في صورة كتلك التي حدثت له وهو الذي آمن بالحرية وتحدث عنها في قريته الرابضة على مشارف الصحراء حتى سماه الناس في قريتنا بترزي الحرية.

كم فخر أمام زبائنه بأعلام الحرية التي ترفرف على قريته إذ لكل فرد أن يتحدث بما شاءت له قريحته، وله أن ينتقد الخفير إلى شيخ الخفراء.. بل إلى العمدة نفسه دون أن يلقى لوما أو يهضم له حق. وحين لطم الخفيرُ أحد الفلاحين، اشتعل رأس إسماعيل الترزي، وقال:

- تلك إهانة لما أكرم الله..

وأردف وقد احمر وجهه غضبا:

أنتم السبب فيما حدث للرجل.

رد فتاه وكان قد انتهى من رش الماء أمام الدكان:

- لم يكن أحد منهم موجوداً.

لم يعر إسماعيل الترزي ملاحظة فتاه انتباها، وقال يخاطب من حضر من زبائنه:

لو علم الخفير أن يده حين تمتد على رجل سيتألم لوقعها كل أهل القرية، لفكر ألف ألف مرة قبل أن يقدم على فعلته الشنعاء..

هز فتاه رأسه بالموافقة، بينما سرت في الوجوه صفرة كصفرة الموتى. ودَّ إسماعيل الترزي لو يتفوه أحدهم ولو بحرف واحد، لكن صمتا كصمت القبور خيم عليهم. وأردف إسماعيل الترزي:

من المؤكد أن شيخ الخفراء لم يدر بما حدث. أنا سأخبره بنفسي، وإن لم يعزله، فسأتقدم بشكوى إلى العمدة، وساعتئذ سيلقى الخفير وشيخه الويل كل الويل.

انسل الزبائن من الدكان بلا صوت. عض إسماعيل الترزي

أنامله غيظا، وتساءل ولم يبق غير فتاه بملامحه القاسية:

ماذا يخشى هؤلاء! العمدة رجل عادل. ولن يرضيه هذا.. من المؤكد أن هذا لن يرضيه.

قال فتاه يخفف من توتره:

- أنت تحدث أمواتا!

- لم الخوف!!

هز فتاه رأسه الكبير عجبا، وتمتم:

- لست أدري!

* * *

أطبق عدد من الخفراء - عند منتصف الليل - على إسماعيل الترزي. ساقوه أمامهم بملابسه الداخلية حتى دوار العمدة. كان الطريق يضج بالشباب والشابات، والأصوات المتلاطمة التي تنبعث من مقهى في الطريق يبث تلفازه أفلاما إباحية.. وتساءل إسماعيل الترزي:

- أيعلم العمدة بما حدث!

رد خفير كاشفا عن عمق بلاهة إسماعيل:

- كيف تتصور أيها الأحمق أن يتم شيء في القرية من دون علم العمدة!!

- أنت.. كاذب!..

- سوف ترى..

- لو علم ما اطمأن في مكانه ساكنا..

- يا لك من أحمق كبير!

ولطمه على قفاه حتى كاد يسقط. تأوه بصوت عال علّه يجذب انتباه أحد رغم تأكده من رؤيتهم له.. وتمتم وقد اتشح صوته بالسواد:

- أكنت واهما إلى هذا الحد!

* * *

ودّ إسماعيل الترزي لو أنه مات قبل أن يرى العمدة نفسه وهو يمسك بسوط يلهب به ظهر فتاه الذي طالما سمع منه حديثه عن الحرية والعدل. تاهت الحروف من شفتيه، فلم يدر ما يقول.. وقال العمدة:

- كنت أحسبك من العقلاء!

- أنا...

- تريدها ثورة علي!

ابتلع إسماعيل ريقه بصعوبة، بينما أردف العمدة:

- طاش مقصك هذه المرة. لا أريد أن أتخذ ضدك إجراء يحيرك..

- سيدي..

- ليتك تذكرت أنني سيدك

- لقد كنت أضعك في مصاف الـ...

قاطعه العمدة قائلا:

- وستظل.. أنا على علم بما يدور بين المرء وزوجه في القرية أم تظنني نائما! أريدك أن تستمر.. نعم.. أنا مثال الحرية والعدل.. قل لهم هذا، ورده على أسماعهم ليل نهار حتى يقر في نفوسهم.

- أنا..

- أردت فقط أن أشد أذنيك، فأرجو أن تكون الرسالة قد وصلتك.

- قد وصلتني يا سيدي.

* * *

في صباح اليوم التالي كان الفتى يرش الماء أمام الدكان. ومع بدء توافد الزبائن أخذ إسماعيل الترزي يحدثهم عن عدل العمدة ورحمته، كما أخبرهم أن الفلاح كان يستحق القتل لا اللطم.. واهتز الناس طربا لحديث إسماعيل الترزي، كما كانوا يطربون لحديثه من قبل، ولمعت عينا الترزي حيث لمح خفيرا يمر من أمام دكانه، وصاح:

- بم يأمر الباشا؟

ولما لم يرد الخفير، توجه إسماعيل الترزي إلى زبائنه قائلا:

- الأمن في قريتنا مستتب.

هزوا رؤوسهم تأكيدا لكلامه بما فيهم فتاه الذي تحسس قفاه وهو يهز رأسه معهم ■

---

* ترزي: كلمة تركية معناها: الخياط. وهي من الكلمات الشائعة في مصر وبلاد الشام.

(التحرير)